تنكرني»[٣١]. هل هي حالة المواجهة في نمط الاستعادة، وامتيال الذاكرة في تحطمها على صخرة الحقيقة؟

ان غسان، في «عائد الى حيفا»، يعالج مسألة طالما تسلطت على بنية الكتابة القصصية والروائية لديه، ولكنه يلجأ الى صياغة مفاهيمية ترتكز على «معنى الوطن»، ليداري عجز الكتابة عن التخلص من ذاكرة تحضر في تكسرها الكياني، وتعجز عن صياغة المُثُل في زمن يفتقر الى المنطق في أخفض درجاته.

فكرة الذنب، هي ما يستولي على أبطال غسان، وهو ما نراه حتى في مسرحياته، وخصوصاً مسرحية «القبعة والنبي»، التي تنبني على هذه العقدة.. والتي تحاول الشخصية الرئيسية في المسرحية أن تكرسها.. ولننظر الى الحوار التالي في هذه المسرحية:

«رقم ١: (يقف) ان المحكمة تسحب اتهامها لكم بارتكاب جريمة قتل لعدم توفر الأدلة المتعلقة بالقاتل والمقتول وأداة الجريمة المزعومة براءة (الظلام، مرة أخرى، ثانية. ثم ضوء مفاجىء على المتهم).

«المتهم: انني أرفض هذا التنصل. أرفض هذا الانسحاب القذر. (الضوء يعم المكان).

«رقم ١: (ببرود) أنت بريء. أنت حر.

«المتهم: لا! لا أيها السادة! أتوسل اليكم بكل قوانين الأرض، يجب أن تجدوا طريقة ما لمحاكمتي.

«رقم ١: (ببرود) نحن آسفون أيها الرجل البريء... لقد بذلنا جهدنا ونبشنا كل حرف كتب في كل مكان. لا فائدة. ان قضيتك استباق لما عندنا، وعليك أن تنتظر.

«المتهم: ولكن ذلك مستحيل أيها السادة. مستحيل (يقف، الضوء عليه فقط) تريدونني أن أخرج من هذا الباب مرة أخرى؟ ليس بوسعكم أن تكونوا قساة الى هذا الحد! أرجوكم.. بريء؟ أي عبء!»[٣٢]. في هذا النص، يتضح أن ذكرى الذنب التي تسيطر على جزء من كتابات غسان قبل عام ١٩٦٧ خصوصاً، وإن عاد ليحللها ويسبر غورها لدفع الكتابة لاعتناق دورها في استثارة الذات الفلسطينية لتحقيق دورها التاريخي. ان الكاتب في غسان يقوم بدور النبي في كشف المعطيات الداخلية والمحركات الوجودية للكائن البشري في مواجهة الفناء!!

أسئلة الوجود

تتحكم، في جزء كبير من أعمال غسان كنفاني القصصية والمسرحية الأولى، أسئلة وجودية مؤرقة، هي أسئلة الوجود الإنساني، التي كان يسألها في بداية حياته الأدبية؛ وهي أعمال تتكلم على الوجود الإنساني وشروطه، وتستوضح الوجود البشري مغزاه...

من هذه القصص التي تخللت مجاميعه القصصية الأولى «أرض البرتقال الحزين»، و«عالم ليس لنا»*، بالاضافة الى مجموع أعماله المسرحية التي كتبها قبل الهزيمة،

---

* أرض البرتقال الحزين نشرت في طبعتها الأولى عام ١٩٦٣. أما عالم ليس لنا فنشرت في طبعتها الأولى عام ١٩٦٥.